الثقافة ومشكلة التعريف

حين نتلكم عن الثقافة فربما أعظم مشكلة تواجهنا في الموضوع هي مشكلة التعريف لهذه المفردة العجيبة بما لها من أبعاد مترامية الأطراف، وما تحمله من مفاهيم متعددة، أو دلالات كثيرة، تكاد أن تكون ظاهرة باطنة، وواضحة غامضة في آن وحد!

فهي -بحق- مشكلة عويصة ومعقدة، تواجهنا في اللغة، كما تواجهنا في الاصطلاح العام، والاصطلاح الإسلامي، بل حتى في الفلسفة والفكر وعلم الاجتماع، مما جعل العلماء في مختلف التخصصات يقعون في الحيرة، ويصابون بالعجز عن الوصول أو الاتفاق على تعريف جامع مانع لها!

وكيف لا! وقد وصلت هذه الإشكالية إلى حد أنه (في مطلع الخمسينات حصر عالمان أمريكيان من علماء الأنثروبولوجيا -وهو علم دراسة الإنسان- مائة وخمسين تعريفا للثقافة)[1] ، مع ملاحظة أن هذا ما قاما هذان العالمان بحصره وجمعه، وربما هناك تعريفات أخرى لم يوقفهما البحث عليها.

وهذه الإشكالية المعقدة ليست محصورة في العرب دون غيرهم، بل هي مشكلة عامة تواجه الإنسان العربي وغير العربي على حد سواء، وكما يقول عمر عودة الخطيب[2] : (إن المشكلة في تعريف الثقافة ليست مشكلة خاصة بنا، بل هي مشكلة الإنسان وعلاقته باللغة والفكر، وما يطرأ على هذا الفكر من تطوّر يتجلّى في انتقاله من الأمور المحسوسة أو المادية إلى المفاهيم المجرّدة، والأمور المعنوية، وفي حركته من البسيط إلى المركّب، وما يطرأ على هذا وذاك من نمو يتزايد أحيانا حتى يبلغ حدّ التركيب المعقّد...).

كما أن مالك بن نبي بعد أن يؤكد هذه المشكلة وشموليتها، يحاول أن يبحث عن أسباب هذه المشكلة منطلقا من التساؤل عن الثقافة: ما هي؟ ثم يؤكد في افتتاح إجابة هذا السؤال الكبير، على أنه (ليس في مقدورنا اليوم على أن نعالج موضوعا كهذا دون أن نجد أنفسنا في حالة التطور الراهنة في العالم العربي أمام مشكلة لغوية وتاريخية)[3].

ويسترسل في عرض هذه المشكلة بشقيها اللغوي والتاريخي ومحاولة تشخيص أسبابها، إلى أن يخلص إلى أن (تحقيق الشيء يتم بواسطة الإدراك الشعوري ثم يترجم إلى "اسم"، وتحقيق الواقع الاجتماعي يتم بواسطة التصنيف ثم يترجم إلى "مفهوم"، فالاسم هو أول تعريف للشيء الذي يدخل في نطاق شعورنا...)[4].

ويواصل استرساله إلى أن يصل إلى النتيجة أو تشخيص سبب من أسباب نشؤ مشكلة التعريف للثقافة، وأنه يتمثل في عدم تحديد هذا المفهوم، وعدم وضع اسم له عبر التاريخ، فيقول نصا[5] : (هناك ظاهرة تثقيف تلقائي هي ثمرة طبيعية لأي مجتمع في أي وضع كان، وبهذا المعنى يستطيع علماء الأجناس أن يتحدثوا عن ثقافات المجتمعات البدائية.

ذلك واقع اجتماعي عام حتى في المجتمعات البدائية، لكنه واقع ظل زمنا طويلا دون تحديد، أي أنه ظل مجرّد شيء حاضرٍ عارٍ عن التسمية، وبذلك لم يتح له أن يصبح فكرة.

"فروما" كانت لها ثقافة إمبراطورية، كما "لأثينا" ثقافة حضارة، ولكن لا العبقرية الرومانية ولا العبقرية الإغريقية ابتكرت لفظا أطلقته على ثقافتها، وكل ما كان في روما أو أثينا إنما هو حضور ثقافة ما، لا تحديد وتشخيص لواقع اجتماعي، أو تعريف لفكرة ثقافة)

وكما أشرنا فإن مشكلة التسمية هذه مشكلة عالمية، فهي موجودة عند العرب كما هي موجودة عند سائر الأمم والشعوب، ومن أسباب ذلك أنه لم تكن كلمة (ثقافة) شائعة الاستعمال عند العرب، وذلك بحسب ما يؤكده غير واحد من الباحثين والكتّاب، ومنهم عمر عودة الخطيب كما سيمر علينا بعد قليل، ومالك بن نبي الذي يؤكد على أن كلمة ثقافة لم تكن (مستعملة في العصر الأموي والعباسي، إذ لا أثر لها في اللغة الأدبية، أو في اللغة الأدبية والرسمية لذلك العصر، فتاريخ هذه الحقبة لم يرو وجود لائحة إدارية خاصة بمنظمة معينة، أو عمل من الأعمال يتصل بالثقافة، ولم يحدث أن وقفت عين من الأعيان لفائدة عمل أو منظمة من هذا القبيل، ومع ذلك فإن تاريخ هذه الحقبة يدل على أن الثقافة العربية كانت حينئذ في قمة ازدهارها)[6] ، أي أنها كانت ثقافة تفتقر إلى الاسم رغم حضورها في الواقع العملي، بل وازدهارها أيضا كما يقول مالك بن نبي.

ولا يمكننا أن نغفل عن سبب آخر أدى إلى هذه المشكلة، هو قصور البيان اللفظي عن استيعاب وحصر ذلك المعنى الواسع والكبير لهذه المفردة العجيبة بما تدلّ عليه من معانٍ كثيرة، وما لها من أبعاد متنوعة، تكاد تكون شاملة لكل شيء على المستوى النظري والعملي، والمادي والمعنوي، على حدّ سواء.

فللثقافة معناها الواسع والمترامي الأطراف، والمتعدد الأبعاد والمفاهيم والدلالات، لأنها تدخل في الوعي، والمعرفة، والفكر، والسلوك الإنساني العام، والنظم والقوانين والعلاقات الاجتماعية والإنسانية بصورة عامة.

وكلمة بهذه السعة والشمولية من الصعب جدا أن يكون لها تعريف جامع مانع، يحدد أبعادها، ويوضح مفهومها، ويحصر دلالتها في معنى معين، مما جعل تلك التعريفات تتكاثر إلى أن وصلت إلى ذلك العدد الكبير الذي أشرنا إليه.

ولهذا نجد اللغة العربية تذكر عدة تعريفات للثقافة، نقل جميل صليبا بعضها، فقال[7] : (ثقف الرجل ثقافة صار حاذقا، وثقفت الشيء حذقته، والرجل المثقف الحاذق الفهم، وغلام ثقف أي ذو فطنة وذكاء، والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه)

أي أنها -في اللغة- تطلق على الحذاقة، والفهم، والذكاء والفطنة، وكما نعلم فإن كل هذه المفردات بما تدل عليه من معنى قد تكون من مصاديق الثقافة، لكنها قطعا ليست تعريفا لها.

ولعل من أسباب ذلك ما يشير إليه عمر عودة الخطيب من أن (الثقافة -بمدلولها العام الشائع- كلمة جديدة، لا تتصل بالمدلول اللغوي الذي ذكرته معاجمنا اللغوية إلا على ضروب من التأويل والمجاز، لا تستقيم في كل الأحوال التي تستعمل فيها كلمة ثقافة.

ولهذا ترى الكثيرين يهربون من اللغة إلى الفكر العام أثناء تعريفهم للثقافة، وما ذاك إلا لضيق المفاهيم اللغوية عن وضع معنى جامع مانع يدل على هذه الكلمة من جميع أبعادها مترامية الأطراف)[8].

ومع ذلك فإن هذا الهروب الذي يؤكده عمر عودة الخطيب لم يحل المشكلة، ولم يساعد المفكرين والباحثين على الوصول إلى تعريف متفق عليه للثقافة، إذ كما أن التعريفات اللغوية للثقافة، كلها -كما أشرنا- من مصاديق الثقافة، ولا تتصل بالمدلول اللغوي إلا على ضروب من التأويل والمجاز، كذلك لم يتم الاتفاق على تعريف للثقافة، لا في الاصطلاح العام، ولا في الاصطلاح الإسلامي، ولا بين المفكرين وعلماء الاجتماع وأمثالهم، بل تكاثرت تعريفاتهم إلى أن وصلت إلى العشرات، ولا أريد أن أذهب بعيدا

لأقول: إلى (مئات التعريفات) كما تقول مديرة (الدائرة الثقافية بعين الباشا في الأردن) الباحثة ساجدة عبد الحليم رضوان الوريكات[9].

ونحن نعرض عن نقل هذه التعريفات لكثرتها، ولشهرتها وانتشارها أو انتشار الكثير منها في العديد من المؤلفات المتعلقة بالثقافة، وفقط أشير إلى ما سبقت الإشارة إليه من أن هذه التعريفات -رغم تعددها وكثرتها- إلا أنها أيضا لم تصل إلى تعريف شامل أو جامع مانع للثقافة، وربما التقت في بعض النقاط واختلفت في بعضها الآخر، ومع ذلك إلا أنني أظن أن هناك اتفاقا أو شبه اتفاق على أنها تعني فيما تعني: أن لكل أمة ما لها من عادات وتقاليد، وقيم ومبادئ، وتراث فكري وعلمي واجتماعي وأخلاقي وتربوي واقتصادي...يمثل ثقافتها ويكوّن حضارتها، وربما اختلفت في بعضه وتشابهت أو حتى تطابقت في بعضه الآخر مع غيرها من سائر الأمم والشعوب، وهي تسعى جاهدة إلى حفظه وتخليده عن طريق الكتب وغيرها لتتوارثه الأجيال، مما يجعلنا لا نستبعد أن الثقافة -بمفهومها الواسع، ومعانيها المتعددة، ودلالاتها الكثيرة- تطلق على مختلف التراث والسلوك الإنساني بشقيه المادي والمعنوي على حد سواء.

فهذا التراث الإنساني العام الشامل بكل ما يتصل به، وما يمكن أن ينبثق ويتفرّع عنه، هو الثقافة والحضارة، مع وجوب ملاحظة ما يمكن أن يوجد من فوارق بين الثقافة والحضارة في الدلالة والمعنى.